من هنا وهناك

هـ . ج . ولز

مات هـ . ج . ولز فى الثالث عشر من الشهر الماضى عن تسعة وسبعين عاما . وكان فى الأشهر الأخيرة يشكو من تفاقم مرضه القديم وهو الديابيطس أى البول السكرى . وقد لازمه هذا المرض أكثر من ثلاثين سنة . وكان يعزوه إلى حادث وقع له وهو يلعب مع زميل حين شطحت ساق هذا الزميل فأصابت ولز فى إحدى كليتيه وعطلتها . وكان هذا منذ أكثر من خمسين سنة . ويرجع ولز بذاكرته إلى هذا الحادث لأن الطبيب الذى عالجه من إصابة كليته كان قد قال له إنه سيمرض فى المستقبل بالبول السكرى . ويبدو أنه كان لهذه الكلمة وقع فى نفسه حتى إنه كان لا يفتأ يذكرها . وعند ما صدقت نبوءة هذا الطبيب ألف ولز جمعية من المرضى السكريين أمثاله لبحث أسباب هذا المرض وعلاجه . وكان هو من أبرز أعضائها . ولا شك أن العناية العلمية التى كان يعيش بها ولز ويعالج بها مرضه هى التى أبلغته إلى قراب الثمانين على الرغم من هذا المرض الوبيل .

وقد مضى على ولز نحو خمسين سنة وهو يؤلف وقد استهوى بقصصه قلوب العامة والخاصة كما أنه كان يرشد الطبقات المثقفة بمؤلفاته الاجتماعية ويوجههم نحو الآراء الجديدة التى يؤمن بها الكثيرون من الساسة والاقتصاديين والاجتماعيين والسيكلوجيين فى جميع أقطار العالم . وأثر ولز ليس كبيراً فى القارة الأوربية حيث تبنى الطبقات المفكرة مستقبلها على الحركات الانفجارية والثورات الانقلابية . أما فى بريطانيا والأمم الاسكندناوية وهولندا وأمريكا الشمالية ، حيث تبنى الأمم مستقبلها على التطور والتدرج فان أثر ولز كبير جداً .

وقد ولد ولز فى القرن التاسع عشر . ولكنه ، بخلاف كثير من الكتاب الانجليز ، قطع الحبل السرى الذى كان يصل بينه وبين وليده القرن العشرين . بل هو ثار عليه فى عقوق وإنكار ، ودعا إلى نقض مؤسساته . ونفض عن عقله وقلبه غبار العصر الفكتورى . وعبارة « العصر الفكتورى » من العبارات المألوفة فى بريطانيا وأمريكا . ذلك أن الانجليز فى عهد الملكة فكتوريا التى تولت الحكم أكثر من ستين سنة كانوا ينبسطون على هدا الكوكب فى توسع جغرافى وتجارى ويزدادون رفاهية ومالا وسلطاناً . وكان الشعور العام بين الجمهور أن الارتقاء سنة اجتماعية وأن شعب الله المختار هو الانجليز الذين يستعمرون الدنيا ويملأونها خيرات وبركات ، وأن نظام الامبراطورية هو فضل ونعمة ينعم بهما الانجليز على سائر البشر الذين ينشرون بينهم الحضارة — بل الحضارة المسيحية — ويقشعون عنهم الجهل والخرافات ويعممون بينهم الحق والعدالة . وكان هذا العصر ، للنجاح المادى الذى يسود البلاد ، يلتزم العرف والعادات الاجتماعية ويعد الخارجين عليها ناقصين فى الكياسة أو متبطرين على نعم الحضارة . وكانوا من هذا الرضى على أنفسهم وعلى مؤسساتهم يكادون يعتقدون العالم : أنه مادام لكل أمة ملكة مثل الملكة فكتوريا ، وديانة مثل الديانة المسيحية ، وتجارة حرة ، فان كل شىء يسير على

أحسن ما يرام وتنقلب الدنيا إلى جنات يعيش فيها الأسود فى صفاء مع الغزلان .

ولكن على الرغم من هذا النجاح المادى ، وهذا الرضا العام بين الطبقات الثرية ، كان هناك نفثت فى الأسس . فكان التعطل والفاقة والمرض كما كانت القسوة والفتك بل الخطف والنهب يفشو فى أنحاء المستعمرات كما يفشو فى أزقة لندن ومنشستر ، فى المصانع التى كان يعمل فيها الأطفال ، بل فى البيوت التى كانت تعمل فيها الأرامل اللائى كن يعملن فى النهار ويسهرن فى الليل فى كسب قوتهن بالأجر الضنين . مما عبرت عنه قصيدة « أغنية القميص » التى شرح فيها مؤلفها كيف تتعذب هؤلاء الصانعات وكيف تتهرأ أصابعهن من الابرة كى يحصلن لاعلى العيش المنتظم بل على ما يمسك الرمق يوما بعد يوم .

فى هذا الوسط ، وسط العصر الفكتورى ، حيث المجد والتلألؤ فى الظاهر ، والعفن والفساد فى الباطن ، ولد ولز وبرنارد شو وأمثالهما من الثائرين . وكان ولز يعيش مع أمه الخادمة فى بيت من بيوت الأغنياء . وكان أبوه مدربا قليل الكسب فى لعبة التنس أو الجولف . وقضى ولز طفولته ، كما كان الشأن بين العائلات الفقيرة فى « بدروم » . فلما أتم دروسه الابتدائية عمل فى أحد المخازن التجارية الصغيرة ثم اشتغل بالتعليم ودأب فى الدرس حتى حصل على شهادة بكالوريوس فى العلوم . وقد أخبرنى الدكتور هيوم الذى كان مديرا لمصلحة الطبيعيات فى مصر أنه كان يزامله فى تلك الدراسة ، وأنه كان يعرف فيه فى ذلك الوقت الجد والذكاء مع الفقر والحاجة .

وأول ما ألف ولز من الكتب هو كتاب فى تشريح الحيوان استعمل مدة طويلة بين الطلبة الذين يدرسون البيولوجية أى علم الحياة . ومن هنا نرى أن تربية ولز علمية وأنه لم يدرس الأدب . والواقع أنه جعل العلم يغزو الأدب . فانه بدأ حياته الأدبية بأن استأنف حركة جول ڤيرن فى الخيال العلمى بأن ألف طائفة من القصص وجدت رواجاً عظيما مثل « حرب العوالم » و « طعام الآلهة » ونحوها .

ونستطيع أن نقول إن ولز فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر شرع يرى رؤيا العلم فى التقدم البشرى الوشيك . كما أنه أيضاً استطاع أن يرى العفن والفساد فى مؤسسات العصر الفكتورى . ولكن بدلا من أن يعالج هذا والفساد بالثورة الماركسية كما هو الشأن فى مفكرى القارة الأوربية ، وجد هو العلاج فى الطريقة الانجليزية العريقة ، طريقة التدرج والتطور باستخدام العلم . وهو إذا كان قد بدأ قصصه بالخيال العلمى المسرف على طريقة جول ڤيرن ، فانه انتهى بأسلوب رصين فى التفكير العلمى لمعالجة مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولذلك كثيراً ما هجر القصة إلى المقالة . ثم توسع فى المقالات حتى صارت كتبا فى دراسة الحضارة وعيوبها . حتى إذا كانت الحرب الكبرى الأولى شرع يتجه بقوة اتجاهاً علمياً ويقول بضرورة الحكومة الواحدة للعالم كله . وقد تطورت هذه الفكرة عنده ، ولكنها منذ ربع قرن وهى بذرية محورية فى جميع تفكيره

وأول تجاربه فى هذا الميدان هو « خلاصة التاريخ » الذى ألفه باعتبار أن هذا العالم أمة واحدة قد جاهدت وحاولت فى جهادها ، ولا تزال تحاول ، تحقيق الحضارة المثلى . ولأنه قصد إلى هذا الهدف ، فانه كاد يجعل التاريخ فناً إذ هو يستغرض حتى إنه يستصغر شأن إسكندر الأكبر ونابليون الأول ، كأنه يرى فيهما صورة غليوم إمبراطور ألمانيا الذى أشعل ، فى الزعم العام ، الحرب الكبرى

الأولى . ولكننا مع هذا الاستعراض نجد نبلا حين نراه يعرض لموكب الحضارة كأنه موكب بشرى وليس إنجليزيا أو ألمانيا أو فرنسيا . كما أننا نحس إحساسه ونجد عاطفته التاريخية تهز قلوبنا كما هزت قلبه حين يصف هذا العالم بأنه « قريتنا الكبرى » .

ومنذ الحرب الأولى إلى الآن وهو فى هذا الكفاح الثقافى يحمل على الوطنية كأنها رذيلة ويوضح لنا أن ربط العالم اقتصاديا يجب أن يربطه سياسياً وثقافياً . ويضرب لنا المثل بمقارنة بين القارة الأوربية التى تحفل ببابل من اللغات والأمم المتنازعة المتقاتلة وبين الولايات المتحدة الأمريكية التى يعيش سكانها أمة واحدة بلغة واحدة . ثم يعزو هذا الفرق لى أن السكك الحديدية قد ربطت الولايات المتحدة فصارت شبكتها التى تربط مواصلاتها سبباً لاتحادها ، هذا الاتحاد الذى حرمت منه أوربا لان السكك الحديدية لم تدركها قبل أن تستقل أممها وتنفصل أقطارها . ثم يستخرج المغزى فيقول إن الطائرات والبواخر والسكك الحديدية والراديفون والتلغراف والبريد الجوى والصحف التى تحملها الطائرات ، كل هذه تربط كوكبنا الأرضى ، كما لو كنا فى قرية صغيرة . ولم يعد هناك مجال لأن يتجزأ هذا العالم دولا ودويلات يعيش كل منها فى سياسة قروية ومهارشة حزبية دون النظر للمصلحة العالمية الكبرى .

وقبل أن يكون ولز عالمياً كان اشتراكيا . ولكنه بسبب تلك الحزازات الحزبية التى تنشأ بين الكتاب والأدباء ، أنكر اشتراكية ماركس وطعن فيه ، واختصم بذلك جمهور الاشتراكيين الأوربيين الذين يعدونه مصلحاً معتدلا يرتق ويرقع . إنه بهذه المثابة ، أى بالرتق والترقيع ، يؤخر الثورة ويفسد الوجدان الطبقى بين العمال . والحق أن ويلز من ناحية المزاج الاشتراكى أقرب إلى حزب العمال الانجليزى الحاضر بل إلى حزب الأحرار منه إلى الأحزاب الاشتراكية الأوربية .

ومن السنين الأخيرة انبسطت له آفاق جديدة فى تفكيره العالمى . فدعا إلى إيجاد موسوعة كبرى تؤلف للبشر وليس لأمة معينه ، بحيث تبقى هذه الموسوعة مؤسسة عالمية لها كتابها الدائمون ومترجموها وسكرتيروها ومكتباتها ومطبعتها ، وبحيث تشترك فيها جميع الأمم ، وتترجم إلى جميع اللغات ، وتطبع على طريقة الورق السائب حتى يستطاع تحريرها وتغيير أوراقها عاماً بعد عام بل شهراً بعد شهر وهى بالبيت عند قرائها .

وفى حياة ولز مأساة هى تطوره الدينى . فقبل نحو ثلاثين سنة ألف نحو أربعة أو خمسة مؤلفات يدعو فيها بروح المرسل المتحمس إلى الايمان بالله . ولكنه بعد ذلك انقلب إلى تعطيل جامح حتى إن آخر مؤلفاته كان كتاباً فى نقد البابوية . ألحقه بآخر فى نقد التوراة . وكلمة « النقد » هنا ملطفة . لأننا لو وضعنا فى مكانها كلمة « نقض » لكنا أقرب إلى الغرض الذى قصد إليه . وقد أحزن هذا التحول كثيراً من الأحبار الذين كانوا فى بداية القرن يستشهدون بأقواله ويقتبسون منها كى يبرهنوا على أن عظماء المفكرين هم على الدوام من المؤمنين .

س . موسى

إلى المجهول

فى الظلام الحالك حيث يختفى كل شىء . . .
بين العواصف الشديدة والرياح الغاضبة
أسلك وحدى طريقا طويلة . . . إلى المجهول . . .

إنها طريق شائكة ، محفوفة بالأخطار
ولكن الحنين المنبعث فى قلبى إلى المجهول
يثير همتى ويضاعف نشاطى ويشد قواى
فأسرع فى سيرى هازئاً بالعواصف والرياح
غير عابئ بالأشواك تدمى قدمى . . .

ومن أعماق الظلام يشرق على نور ساطع
فأرى وجها مشرقاً تكتنفه هالة من نور
أثبت فيه عينى وأطيل فيه التحديق
فأرتعش منه وأضطرب اضطراباً شديداً
ويخفق قلبى خفقات قوية متزاحمة . .

ومن العواصف الهائجة اسمع صوتاً خافتاً
ولكنه ناعم ، له جرس رقيق يثير الأشجان
ويملأ صداه أذنى وقلبى المضطرب
وكأنه يدعونى ويلح على بالوقوف
لاترك طريقى وأتجه نحو الوجه المنير . . .

وأشعر بقوة خفية تشدنى بعنف
وكأن يداً خفية ناعمة تلامس يدى
لتقودنى إلى مشرق النور ومبعث الصوت . . .
إن جسمى يرتجف لهذا الاحساس الغريب
ولكن اليد تشدنى بقوة وعنف لا يقاوم . . .

وجه منير وصوت عذب ويد جبارة
تدعونى بل تدفعنى فى طريق جديدة
ألمح زهوراً ووروداً فرشت علها
سماؤها صافية تتألق فيها النجوم
وجوها هادئ جميل لا يعكره شىء . . .

واقف متردداً دهشاً ، مضطربا
وأحاول أن أخطو وأنجو من الظلام
لكن صوتا جبارا ينبثق من أعماق نفسى
ارتعدت منه وارتجفت أضلعى لقوته
صرخ فى بقساوة . . . فى طريقك إلى المجهول . . .

فأمسح دمعتين تحدرتا على خدى
وأغمض عينى لئلا أرى ذلك الوجه
وأطبق يدى على أذنى كيلا أسمع الصوت
وأتحسس يدى لأنجو من اليد الجبارة
وأندفع فى طريق ، على الشوك ، وفى الظلام . . .

عيناى مغمضتان ورغم ذلك أرى وجها
وأذناى مسدودتان ومع ذلك أسمع صوتاً
ويدى طليقة ولكنى اشعر بقوة تشدها
أما قلبى ! فانه ليتقطع حزناً وهلعاً
ومع ذلك أندفع بقوة فى طريق المظلم . . .

يغمرنى ظلام مخيف ، وتلفحنى ريح عاتية
يدمى الشوك قدمى ، وأتعثر فى سيرى
يهزنى الألم ، وتفيض دموعى بغزارة
ولكنى أتابع السير لأن ذلك الصوت الجبار
لا يزال يصرخ بى : فى طريقك إلى المجهول . . .

[دمشق] شحاده الخورى

رسالة

« . . . قرأت ، كعادتى ، ما تفضلتم به على قراء العربية فى عدد أغسطس الأخير من مجلة «الكاتب المصرى» عن «الأدب بين الاتصال والانفصال» فكنت معجبا ، كعادتى أيضاً ، بهذا الأسلوب الرقراق الشفاف الذى يتناول مشاكل الفكر والحياة مترفقاً هادئاً ، فيوسع منها المضايق ، ويمهد العقبات ، ويجلو الغياهب ، وإذا الحياة على يديه جنة تشيع فيها الأنوار وتعبق الرياحين ، حتى ينقلب المرء بها ، عند نهاية المطاف ، إلى حالة من الوجود ، يتنفس فيها ملء رئتيه ناعماً مطمئناً . . .

« ولكن لى حول ذلك الموضوع ملاحظة أحس أن إغفالها لا يرضيك ، بل يغضبك ، بل تجد فيه ضرباً من المصانعة ، ما زلت

تحمل عليها وعلى مصطنعيها ، فى كل فصل من فصولك النقدية التى تمور بحب الحقيقة والدعوة إلى خدمتها إن فى « حديث الأربعاء » وإن فى غيره .

« أما هذه الملاحظة فهى أن « وضع » المشكلة التى عرضت لها فى حديثك الشيق عن اتصال الأدب بالحياة الواقعة وانفصاله عنها ، جاء مغلوطاً . لأن صلة الأدب بالحياة قضية مفروغ منها ، فهى من الوضوح والبساطة بحيث لا تحتاج إلى نقاش وتقرير . فالأديب كائن حى يتأثر كغيره من الكائنات الحية بما يعتمل فى كيانه من جهة ، وبما يجرى فى محيطه من جهة أخرى ، وكل ميزته أن يعبر - مضطراً أغلب الأحيان - عن تأثراته بطريقة من الطرق !

« وحقيقة المسألة كما أحسب ، هى هذه الظاهرة فى طبيعة الأدباء - لا فى الأدب - التى وصفتها عند ذكر أبى العلاء بكلمة « وحشية » . فان أكثر الذين حفظ التاريخ أسماءهم من الأدباء والمفكرين ينزعون إلى العزلة ، ويتبرمون بالناس ، ويتحامون ولوج الحياة العملية وشؤونها المباشرة ، ويلقون متعتهم الكبرى فى التأمل الصامت . وقد لخص هذه الطبيعة شاعر قديم بقوله :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

« ومن شأن هذه الطبيعة التى تنتظم الكثرة الساحقة من رجال الفكر والأدب أن تخلق الريب فى نفوس الجمهور وتمنعه من تفهم ما يلقى إليه من المعانى والأفكار ، فيأخذها على أنها محض خيال أو نتيجة شذوذ ، ويتجاوزها إلى ما اعتاد من حياته الخاصة وموحياتها الهزيلة . وهكذا تتسع الشقة بين الأدباء والحياة الواقعة وتزداد توتراً يوماً عن يوم ! هذا ما حدث لأفلاطون فى فجر التاريخ العقلى ، وهذا ما حدث لجان جاك روسو ، وهذا ما حدث للمعرى ، بل هذا ما يحدث اليوم لكل شاعر وأديب ومفكر .

« وكان المفكرون من قبل والأدباء ، يناضلون ويحرصون على رفع الجماهير إلى مستواهم الفكرى دون أن تستنزلهم الشهوات إلى مستوى الجماهير ، وكانوا يلقون فى هذا السبيل من عنت الحكام وجور الأيام قاصمات الظهور . ولكن المرحلة الراهنة من تطور الانسانية أغرت معظم أدبائها بالمظاهر فوقفوا عن النضال ، وحسبوا أن فى الصحافة والجوائز والمناصب تقديراً صحيحا ، وأن فى تأليف الكتب ونشر المقالات صيغة النضال المثلى . . . وهذا يعنى أنهم نزلوا عن رسالتهم ، وانتقضوا على تاريخهم ؛ فليس ثمة من سقراط يجوب الشوارع ويحتك بالعامة يهديها ، ولا من أريحى يقوم اعوجاج السلطان بحد السيف إذا اقتضى الأمر ، ولا من معرى يحتمل الأذى وينافح عن الحق ويبحث عن الحقيقة !

« فأديب اليوم بين أمرين أحلاهما مر : إما أن ينخرط فى الحياة الواقعة ويفقد رسالته ، وإما أن يعتزل فلا يستطيع تأديتها .

« هذه هى المشكلة الحقيقية التى تهز عالم الأدباء اليوم . هذا هو وجهها الصحيح ، وهذا ما أرجو أن تعالجوه فى المستقبل . »

عبد اللطيف شراره

[لبنان]